خطاب الأستاذ
الدكتور مختار هاشم
في حفل استقباله

سيدي نائب رئيس المجمع
سادتي أعضاءَ المجمع
أيها السيداتُ والسادة

لم أتوقّع فيما غبر من أيامي أن يأتي يومٌ أقف فيه موقفي هذا لا ستقبل عضواً عاملاً في هذا الصرح الشامخ من صروح أمتنا المجيدة ولا أن يكون استقبالي في هذه القاعة التاريخية التي تحمل اسم مؤسسِ المجمع الأستاذ محمد كرد علي، في هذه القاعة التي كنت قصدتها يافعاً لأول مرة بغية الاستماع إلى محاضرة للشيخ عبد القادر المغربي عنوانها (الشعوبية)، كان استاذنا خليل مردم بك[1] قد أشار علينا بحضورها والاقتباس من مادتها في كتابة وظيفة الانشاء.

وهذه ساعةٌ من ساعات العمر التي تلتبس فيها المشاعر وتصطرع فيها الأفكار ولم أعتد تنميق الكلام وتزوير العبارات فلا غرو إذا عُـمّيت عليّ وجوهُ الكلام، ولكن لا بدّ أولا من شكر السادة الزملاء على ثقة منحنوني إيّاها قد أكون غير جدير بها ولكن ثقتي باستقامتهم واخلاصهم لرسالة المجمع تميل بي إلى تصديقهم والاعتزاز بهذه الثقة. واخصّ بالشكر الدكتورَ شاكرَ الفحّام نائبَ رئيس المجمع، الذي عقد هذه الجلسةَ العلنية ودعا إليها زمرة مختارة من أصدقاء العلم والأدب، وتولّى شؤون انعقادها بنفسه شخصياً، ولم يلهِه عن

(١) ما زالت صورة هذا الأستاذ العظيم تلوح لخيالي حتى ذكرته في قصيدة (ذكريات المدرسة).

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ذلك ما حاز من مجد عظيم بنيله جائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربي لهذا العام. كما اخصّ بالشكر. الدكتور عدنان الخطيب الذي تطوّع بالتنويه باسمي فاتعب نفسه بالتنقيب عن حسناتي القليلة، وكذلك الكريمُ: يرتاح للعطاء ويجد في التعب لذّة ورضى. وانني ما زرت المجمع يوماً إلّا انست بمجلسه فهو أمينه الوفيّ بعهده.

ثم أقول: انني إذا لم اطمح يوماً إلى التشرّف بزمالكتم فقد كنت توّاقاً إلى حضور مجالسكم والاستماع إلى طيِّب أحاديثكم، إلّا انني كنت منهمكاً في شؤون معاشي منصرفاً إلى خدمة مرضاي، ولكنّ وجه العربية المُضريه ظلّ يداعب خيالي وحبُّها يعصف بجوانحي فما وجدت فراغاً إلا ملأته بمناجاتها ولا لاحَ لي درب إلا سلكته في اقتفاء آثارها حتى أذِن الله لي بزيارة دارها، وكان ذلك قبل ثماني سنوات أو أكثر حين التقيت استاذي الدكتور حسني سبح رحمه الله، رئيس مجمع اللغة العربية وبادلته الحديث في احياء التراث العلمي، وحين ودّعته دعاني لزيارته في مجمع اللغة لاتمام الحديث، وتمّت الزيارة وتكرّرت وعاد الاتصال باعضاء المجمع وموظّفيه المخلصين، وانجزت ما يسّر الله لي من خدمة لغة القرآن. ولمّا عرض عليّ سدنة المجمع مشاركتهم في حمل الأمانة الثقيلة لم اتمالك عن الاستجابة لامرهم، لأن حبّ العربية قد استخفّني، والزهو بها استجهلني، فأرجو من الله العلي القدير أن يشدّ أزري وأن لا يجعلني من الظالمين[٢]، وان يوفقني لأكون من الناصحين.

فنصحي لكم قاد الهوى من بلاده إلى مَنْبِت الزيتون من منبِت النخلِ

منّ الله علينا بقطرات من زيت هذه الشجرة المباركة التي ﴿ يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ﴾[٣].

وبعدُ، لما كان من تقاليد المجمع وصلُ الحاضر بالماضي، فانني أتشرف

(٢) اشارة إلى سورة الاحزاب: ٧٢.
(٣) سورة النور: ٣٥.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

باحياء ذكرى الأستاذ العظيم محمد المبارك الذي خلفتهُ في عضوية المجمع، وإذا كان الحظ لم يسعدني بأن أكون على صلة شخصية به، فقد أتاح لي شرفَ لقائه في محاضرة ألقاها عام ١٩٤١ في نادي الكشّاف السوري الذي كان في ذلك الوقت مثابة فريق من الشباب المؤمنين بعروبتهم. كان عنوان المحاضرة (أثر صاحب الرسالة في وحدة العرب وتوسّعهم)[٤] وقد افتتحها بقوله (اننا نعجب اليوم كيف كانت ذكرى الرسول العربي — وهي ذكرى ثورة وحياة وايمان — بعيدةً كل البعد عن أن تثير فينا شيئاً من روح محمد ﷺ القوية ومن تعاليم رسالته، تلك الرسالة التي لاتقبل ظلم الظالمين واستغلال المستغلين وبغي المستبدين ثم يأخذ في تعريف الوحدة والتوسع (فالوحدة شعور جماعة من الناس بانها تؤلف جسماً حياً واحداً يعمل جميعُ أفراده أعمالاً منسجمة، تؤدي إلى تحقيق غاية واحدة، فإذا حصلت هذه الوحدة حصلت وتولّدت جميع مظاهر الوحدة من سياسية واجتماعية وفكرية، وكانت نتائج طبيعية لها، وألّف أولئك الأفراد شيئاً جديداً يسمى أمة، تتميز من غيرها كما تتميز الأجسام الحيّة بخصائصها، هذه هي مرحلة الوحدة في تطوّر الأمة، وتلي هذه المرحلة مرحلة التوسع الحيوي. وهي مرحلة تشعر فيها الأمة بقوتها وتؤمن بظفرها ونجاحها، وإذا كانت روح الأمة قويّة تمثّلت البشرية جميعاً في نفسها وأصبح جسمها على حال من القوة والسلامة تمكنه من تمثّل العناصر الأخرى تمثّلاً حقيقياً، ليست القوة وحدها هي الأساس فيه، وأصبحت مشرّعة لنفسها ولغيرها).

وعند الكلام عن العرب قبل الاسلام يقول: (إذا أطلّ المؤرخ من شرفته على الزمن ورجع القرون القهقرى وجد أن العرب من أقدم الأمم التي عُرفت وأقواها. فإننا إذا ألقينا نظرة شاملة على تاريخهم وجدنا ان العرب أسسوا مدنيات قديمة متعاقبة، تبتدئ بما ظهر في ما بين النهرين ثم تتلوها مدنيات في اليمن وفي البتراء والأردن وتدمر والحيرة والشام، ولكن لم تكن قد نشأت بعد وحدة عامة

(٤) نشرها في كتاب الأمة العربية في معركة تحقيق الذات.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تشعرهم شعوراً واضحاً قوياً بانهم أمة واحدة ولا ظهر بعدُ الشعور المشترك العام الذي يشملهم جميعاً) .

ويقول أخيراً :

(وهنا نقف باجلال أمامَ هذه المعجزة الإلهية التي قضى الله أن يجعلها في تاريخ العرب ، أمامَ تلك الرسالة التي شرفهم الله بها . ولا نشكّ ان الله قدّر أن يكون النبي منحدراً من أشرف الآباء ، وقدّر كذلك في احكام غيبه أن يكون العرب من أشرف الأمم وأطهرها ليجعل منهم حملة دينه وقرآنه ﴿ إنا جعلناه قرآنا عربياً غير ذي عوج ﴾ .....

إن في فهم العرب رسالتهم عامة خالدة موضوعة في دستور تريد ان تشرعه لجميع الناس لدليلا على ان العرب قدّر لهم أن يصلوا إلى أعلى ما يمكن أن تصل إليه أمة من الأمم في الحياة .

عمدت إلى تلخيص هذه الحاضرة لأنها معلَمٌ على طريق التفكير القومي من جهة والاسلامي من جهة أخرى التقى عنده التفكيران وكان كلٌّ منهما يسير على حدة . إنها تعبّر عن مفهوم جديد يأخذ القومية مأخذ الاعتبار ولم يكن لها مكان في التفكير الاسلامي في عهد الخلافة العثمانية فقد كان الايمان بالقومية يبدو نقيض الايمان بالدين[٥] ولا يمكن فهم هذه المشكلة إلا بالرجوع إلى تاريخها[٦] والامعان في فهم تاريخ الاصلاح الاسلامي[٧] وقد ظهر للفيلسوف المسلم التركي رضا توفيق في مجلة الثقافة (دمشق ٥ أيار ١٩٣٣) مقال[٨] بعنوان (المدنية والثقافة والاصلاح) اقتطف منه فقرات تتصل بهذا الموضوع :

---

(٥) انظر مجلة المجمع العلمي مجلد ٣٥ ص ٦٧١ .

(٦) انظر المسألة الشرقية في ادوارها المختلفة وظهور محمد علي الكبير في (تاريخ القرن التاسع عشر في أوربا) لمحمد قاسم وحسين حسني .

(٧) انظر (أم القرى) لعبد الرحمن الكواكبي .

(٨) ترجم المقال الدكتور جميل صليبا .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(الثقافةُ هي إذنْ بهذا المعنى صورة شخصية وطابع جنسي، لا بل هي قوة حيوية تصان بها عبقرية الشعب ووحدته) .

(فللعرب مزايا شخصيةٌ ناشئةٌ عن ثقافتهم. وكما تجعل المزايا الجنسيةُ ملامح العربي مختلفة عن صورة الآخرين فكذلك يولِّد المزاجُ الجنسي والاستعداد الطبيعي صورةً شخصيةً من الثقافة مختلفةً عن غيرها. ولولا صفاتُ العربي الجنسيةُ وثقافتهُ واخلاقُه التالدةُ ولغته المهذّبةُ وجمالُ أدبه وروعةُ تاريخه المجيد، لما استطاع أن يحافظ على شخصيته الجنسية بالرغم من تقلبات الزمان وطارئ الحدثان. بل مما هو جدير بالاعجاب ان العربي استطاع أن يتغلب بثقافته ودينه على جميعِ الأمم الحربية التي غلبته بالسيف والقوة الغاشمة .

بعد هذا التمهيد أشرع في ترجمة الأستاذ محمد المبارك :

ولد سنة ١٩١٢ للميلاد في دار ملاصقة للمدرسة العادلية الحقت فيما بعد بمقر المجمع العلمي العربي بدمشق. سمّاه ابوه عبدُ القادر المباركُ محمداً وكنّاه منذ صغره بابي هاشم أما اسرته فيطيب لي أن انقل ماذكره في مقدمة كتابه (الأمة العربية في تحقيق الذات) حيث قال (استمر تفكيري في هذا الموضوع، واعانني على ذلك دافع داخلي، تكوّن مما لقّنني إيّاه أبي رحمه الله منذ كنت يافعاً، من اننا هاجرنا من الحجاز فيمن هاجر من ابناء الحسن بن علي، وأقمنا في شتى أنحاء المغرب إلى أن استقر بنا المطاف في الجزائر، ثمّ غادرناها مع عدد كبير من سكانها بعد دخول الفرنسيين إليها عِقبَ حربٍ دامت بضعَ عشرةَ سنةً، إلى بلد العروبة والاسلام دمشق حيث استقرّ بنا المقام منذ قرن وربع وطالما كنت اقلّب صفحات الرسائل المتبادلة بين جدّي ومن بقي من أسرته في الجزائر، وبينه وبين اخيه الذي هاجر بعد ذلك إلى اليمن، وأتأمل فيما في تلك الرسائل من أخبار هجرتنا وأجدادنا. لقد بقي كل ذلك كامناً في النفس ولكنه كان يدفعني من حيث أشعر ولا أشعر إلى البحث والتفكير في كثير من الموضوعات دفعاً شديداً، ويحمّلني ألواناً من العواطف والمشاعر) .

هذه هجرة أسرة المبارك، بين تغريب وتشريق، والهجرة قدَرُ كثير من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الأُسَر والقبائل العربية، ولكن عدمَ الاستقرار هذا في المكان يقابله استمرارٌ عجيب في الزمان، حتى ان سيرة محمد المبارك لا تتجلّى لك إلا بالعودة إلى سيرة أبيه وجدّه، لذلك أقول:

إن محمد المبارك من دوحة بارك الله لدمشق برجالها أولهم جدّه الشيخ محمد المبارك الكبير الحسني[٩] نشأ في عصر كان علماؤه لا يُعنَون إلاّ بالنحو والصرف والفقه والحديث والتصوف فبرُزَ بينهم، وكان أول من أحيا قراءة مقامات الحريري، شرَحَ عشر مقامات منها[١٠] فانتفعوا بها وحبّبهم بلغتهم العربية في دولة كان موظفوها يتفاخرون بالتراطن بالتركية ولفت انظار شيوخ الدين إلى كتب اللغة العربية التي لا يُفهمَ كتاب الله وسنة رسوله إلا بدراستها والوقوف على أسرارها وكان من ولعه بالعربية واهتمامه بنشرها بين أبنائه أنه بعدَ طبع لسان العرب دخل منه دمشق نسختان فاشترى احداهما وأهداها لابنه وخليفته في اللغة والأدب الشيخ عبد القادر المبارك واهدى إليه معها تاج العروس.

وللشيخ محمد من الآثار الأدبية: نضرة البهار في محاورة الليل والنهار، بهجة الرائح والغادي في محاسن الوادي، مقامة في المفاخرة بين الغربة والاقامة.

وترك لورثة علمه وأدبه خزانة كتب طيبة في اللغة والنحو والفقه والتصوف ومنها كتاب الحِسبة لابن تيمية الذي كان يحاربه الحشويّون المقلّدون.

وبفضل رعاية الوالد لولده وما كان يُقبِسه إيّاه من دروس العلم والأدب نشأ الشيخ عبد القادر المبارك مفتونا باللغة وآدابها وما زال يستضيء بمشكاة والده حتى أصبح علماً من أعلام اللغة فاهتمّ بتدريسها والتأليف فيها فشرح المقصورة الدُريدية واعان في تحقيق المخطوطات النفيسة كسيرة ابن سيّد الناس فقد كان من علماء السيرة وقلما يجاريه أحد من شيوخ البلد في هذا العلم.

ومن ذكرياتي في الكلية العلمية الوطنية عندما كنت طالباً فيها: أن رفيقاً

(٩) انظر: المعاصرون لمحمد كرد علي ترجمة ٣٩.

(١٠) طبعها بعنوان (المقامات العشر لطلبة العصر).

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لنا في المدرسة نقل من رفيق له في (مكتب عنبر) القصيدة القافية (احدى العِبَر بين البشر أو أنشودة الألباب في عالم الأسباب) من نظم استاذ اللغة عبد القادر المبارك

لم ياتهيب الجَدّ هيبَ الـــراقي ألِحُسن منظر ثوبــه البــرّاق
لمَ سادك الراقي سيادة قاهــر طَبّ بما تلفيــه غير مُطــاق

وفي القصيدة بيت أثار استغرابنا وجعلنا نحفظ المثل القائل: مخرنبقٌ لينباع

فاخرنبقــوا دهــراً يريشون التـي طاروا بهــا من بعــد الاخرنبـاق

يذكر محمد المبارك مدى علاقته بأبيه قائلاً[١١]: (ألفيتُ في الاقبال على الأبحاث اللغوية احياء لميل قديم موروث وحفظاً لجهد كنت بذلته في هذا السبيل، فطالما قضيت الساعات الطوال مع والدي رحمه الله في شرح المعلقات أو لامية العرب للشنفرى أو المقصورة الدريدية أو مقامات الحريري أو أمثالِها من آثار لغتنا. وقد طفقت منذ كنت ناَشئاً أعبّ من معين روايته الواسعة وأنهَل من ينبوع لغته العذبة في جلسات خاصّة أو مع زملائي في تجهيز دمشق أي مدرستها الثانوية أو في مدرسة الأدب العليا لكلية الآداب. إلى أن يقول: ولم يكن شأنه مع اللغة العربية شأن عالم يدرسها أو يعلّمها ولكنه كان معها في حالة وجدانية نفسية يعيش مع شعرائها الأولين ورواتها السابقين).

قوله: ميلٍ قديم موروث يستحق النَظَر فكأنه يعتقد بوراثة بيولوجية وانني أراه أثرا من آثار الجوّ الذي تنسّم هواءه والكنف الذي نشأ في حِماه، أما كان هو القائل[١٢]: لقد أتيح لي أن أعيش في حداثتي منذ ثلاثين سنة في ذلك الجوّ المجمعي فقد كان والدي رحمه الله عضواً عاملاً في المجمع منذ أوائل انشائه، فكنت أصحبه في بعض تلك الندوات الخاصة بالأعضاء، واسمع منه

(١١) مقدمة فقه اللغة لمحمد المبارك صفحة ج وفيه تقرأ النصّ كاملاً.
(١٢) كلمة الأستاذ محمد المبارك في حفل استقباله في مجمع اللغة العربية بدمشق.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

حكاية ما يدور بينهم من مناقشات وأبحاث، واتلقّى مغتبطاً اعداد المجلّة قارئاً أو متصفّحاً ... إلخ.

نشأته

وفي كنف هذا الوالد المسلم العالم نشأ محمد المبارك فدرس العربية وعلومها على أبيه كما درس العلوم الدينية على المحدّث الأكبر الشيخ بدر الدين الحسني الذي كان متفرداً في عبادته وتقواه بل درس عليه العلوم الدنيوية من حساب وهندسة وحكمة طبيعية كما عُرِفت عند العلماء الأقدمين ولازمه حتى توفّاه الله سنة ١٩٣٥م فبكى عليه بكاء مرّاً. أنهى دراسته الثانوية بتفوق ملحوظ وحصل على البكالوريا الثانوية ــ قسم الرياضيات ــ ثم قدّم أوراقه لدخول كلية الهندسة في بيروت إلا انه عدل عن رأية فدرس الحقوق وتخرّج سنة ١٩٣٥م. وعمل فترة قصيرة في مكتب المحامي أسعد المحاسني ثم أُوفد للدراسة في باريس فدرس الأدب العربي في السنة الأولى والأدب الفرنسي في السنة الثانية فحصل على الاجازة في الآداب سنة ١٩٣٧م ثمّ حصل على دبلوم علم الاخلاق والاجتماع في السنة التالية. أفاد من دراسته في فرانسا افادة كبيرة بالاطلاع على أصول الثقافة الغربية فقد كان اساتذته في قسم علم الاجتماع من تلاميذ (دوركهايم) Durkheim الذي حاول تأسيس علم اجتماع مستقلّ في موضوعه وطريقته تحقيقاً للهدف الذي رمى إليه أوغست كونت Auguste Comte لا جَرَمَ ان هذا الاتجاه قد اصطدم بالاتجاه الاسلامي الذي نشأ عليه فحاول العثور على صيغة جديدة يرتاح إليها.

ثم رجع إلى دمشق فعمل مدرّساً للغة العربية في المدارس الثانوية في حلب سنة ١٩٣٨م وبعد سنتين انتقل إلى دمشق فدرّس اللغة العربية في ثانويتها الكبرى (التجهيز) وفي دار المعلمين. وفي عام ١٩٤٥م، عيّنه المشرف العام على وزارة المعارف الاستاذ ساطع الحصري مفتشاً عاماً على سورية لمادتي اللغة العربية والدين (بل واللغة الفرنسية أحياناً) فوضع مناهج هاتين المادتين لجميع سنوات التعليم الثانوي بأسلوب علمي جديد.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نشاطه السياسي

في عام ١٩٤٧ استقال من وظيفته في وزارة التربية ليتمكن من ترشيح نفسه للانتخابات ففاز فيها ودخل مجلس النواب نائباً عن مدينة دمشق كما شغل منصب وزير الاشغال العامة والمواصلات سنة ١٩٤٩ ــ ١٩٥٠م ثم منصب وزير الزراعة سنة ١٩٥١ .

وبعد سقوط الشيشكلي انتخب مجلس نيابي جديد فرشّح نفسه نائباً مستقلاً عن مدينة دمشق ونجح في الانتخابات واستمر نائباً حتى عام ١٩٥٩ حين قامت الوحدة بين مصر وسورية فانصرف إلى العمل العلمي ولم يشارك منذ ذلك الحين في العمل السياسي .

عمله في التدريس الجامعي

لم يـحُـلْ النشاط السياسي عن استمراره في التدريس فقد درّس سنة ١٩٤٨ مادة فقه اللغة ثم الدراسات القرآنية في قسم اللغة العربية في كليّة الآداب بجامعة دمشق . وعندما أسست كلية الشريعة بجهود العالم المفكر مصطفى السباعي رحمه الله في عام ١٩٥٤ ــ ١٩٥٥ الدراسي، شارك في وضع خطّتها ومناهجها واقترح لأول مرة تدريس مادة (نظام الاسلام) ومادة (حاضر العالم الاسلامي) وعيّن فيها استاذا بكرسي أولاً ثم أسندت إليه عمادتها منذ عام ١٩٥٨ .

وفي عام ١٩٦٦ انتدب من جامعة دمشق إلى جامعة أم درمان الاسلامية في السودان ليشغل منصب استاذ ورئيس قسم الدراسات الاسلامية . ثم عيّن استاذاً محاضراً في جامعة الخرطوم في كلية الحقوق (قسم الشريعة) منذ عام ١٩٦٧ وقد أحبّ السودان واحبّه أهلها لوعيه الاسلامي ونشاطه المستمر .

وفي عام ١٩٦٩ اقترح عليه وزير المعارف في المملكة العربية السعودية العمل فيها فرحّب بالاقتراح واختار مكة المكرمة فعيّن استاذاً ورئيساً لقسم الشريعة والدراسات الاسلامية في كلية الشريعة بمكة المكرمة ، وشارك في وضع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مناهجها وخطتها، كما كان عضواً للمجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة.

ثم أصبح مستشاراً واستاذاً باحثاً في جامعة الملك عبد العزيز بجدّه سنة ١٩٧٣ وفي عام ١٩٧٨م انتدبته جامعة الملك عبد العزيز بجدّه للتدريس في الجامعة الأردنية ليعمل فيها استاذاً للثقافة الاسلامية وعلم الاجتماع بالفصل الدراسي الثاني من كل عام، واستمر في هذا العمل إلى حين وفاته.

مشاركاته

كان عضواً في لجنة الثانويات الشرعية في سورية سنة ١٩٤٢ م كما شارك في عام ١٩٥٤ م في وضع مناهج ومخططات كلية الشريعة بدمشق.

وفي عام ١٩٦٠م، اختاره مجلس جامعة دمشق ممثلاً لها في المجلس الأعلى للتخطيط الجامعي للجمهورية العربية المتحدة في القاهرة، ثم كان عضواً في لجنة التخطيط في جامعة الأزهر.

وفي عام ١٩٦٤م، شارك في وضع خطة لكلية الشريعة في مكة المكرمة، ولكلية التربية من جهة الثقافة الاسلامية، وكان أول من اقترح جمع الكليتين وتسميتهما بجامعة أم القرى. وفي صيف عام ١٩٦٦م، اشترك في وضع خطط الكليات في جامعة أم درمان الاسلامية، وفي عام ١٩٧١م، دُعي للمشاركة في وضع خطّة للدراسة في معهد القضاء العالي في الرياض.

كما شارك في أكثر المؤتمرات الاسلامية التي عقدت في العالم الغربي والاسلامي في كراتشي، ولاهور، ودمشق، ومكة المكرمة، ومقديشو، والقدس، وطرابلس الغرب، والجزائر، والمغرب، والأردن، واندونيسيا، وفرنسا، وايطاليا.

كما كان عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق والقاهرة وبغداد.

كما شارك في اللقاءات الاسلامية المسيحية، وأشهرها اللقاء الذي مثّله

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وفد كبير من العلماء والمفكرين من المملكة العربية السعودية في دولة الفاتيكان ثم في باريس واسبانيا وذلك سنة ١٩٧٤ م.

اتصل بعدد من المفكرين الغربيين الذين انصفوا الاسلام واعترفوا بفضله على الحضارة الانسانية مثل (زيغريد هونكه) المستشرقة الألمانية، وموريس بوكاي، وروجيه غارودي الفرنسيين.

وفاتـه

كان كعادته ـــ رحمه الله ـــ يقصد المدينة للزيارة فقصدها مع زوجته وابنته يوم الاثنين ١٤٠٢/٢/٤ وفي صبيحة يوم الخميس ١٤٠٢/٢/٧ هـ الموافق ١٩٨١/٢/٣ م أدركته الوفاة بالسكتة القلبية، وهو في طريقه إلى الطبيب مع أحد أخوانه وبعد وقت قصير من عبارة قالها وهو يمرّ من أمام مقبرة البقيع: (هنيئاً لمن يُدفَن في البقيع) يرحمك الله يا أبا هاشم، كأنّي بك صدقتَ الله وعده، فاختارك في هذه الأرض الطيّبة.

آثـاره ومؤلفـاتـه

خلّف لنا مجموعة من الكتب والرسائل النافعة هي:

١ ـــ فن القصص في كتاب البخلاء للجاحظ طبع سنة ١٩٤٠ م.

٢ ـــ رسالة في عبقرية اللغة العربية طبع ١٩٥٦ م.

٣ ـــ نظرة الاسلام العامة إلى الوجود وأثرها في الحضارة ١٩٥٨ م.

٤ ـــ القرآن عربي الخطاب انساني الرسالة ١٩٥٩ م.

٥ ـــ من منهل الأدب الخالد (دراسة تحليلية أدبية لنصوص من القرآن) ١٩٥٩ م.

٦ ـــ رسالة في عبقرية اللغة العربية.

٧ ـــ فقه اللغة ١٩٦٠ م.

٨ ـــ خصائص العربية ومنهجها الأصيل في التجديد والتوليد ١٩٦٠ م.

٩ ـــ الامة العربية في معركة تحقيق الذات الطبعة الأولى ١٩٥٩ م.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

١٠ ــ سلسلة نظام الاسلام صدر منها: العقيدة والعبادة، الاقتصاد، الحكم والدولة.

١١ ــ المجتمع الاسلامي المعاصر.

١٢ ــ الفكر الاسلامي في مواجهة الأفكار الغربية ١٩٦٩ م.

١٣ ــ نحو انسانية سعيدة.

١٤ ــ العقيدة في القرآن الكريم.

١٥ ــ ذاتية الاسلام أمام المذاهب والعقائد ــ المحاضرات العامة خلال عام ١٩٦١ ــ ١٩٦٢ جامعة دمشق.

١٦ ــ نحو وعي اسلامي جديد (محاضرة ألقاها في الأزهر).

١٧ ــ المشكلة الثقافية في العالم.

١٨ ــ مذكرات في الثقافة الإسلامية.

١٩ ــ الاسلام والفكر العلمي.

٢٠ ــ بين الثقافتين الغربية والاسلامية.

٢١ ــ الدولة ونظام الحسبة عند ابن تيمية (بحث قدمه إلى اسبوع الفقه الاسلامي).

هذا ما عدا عدداً من المقالات في كثير من المجلات الاسلامية العلمية، وكان آخر مقال له في مجلة الأمة[١٣] الصادرة من دولة قطر بعنوان (موضوع الأمة بين النظريات الاجتماعية والتصور الاسلامي).

إطلالة على معالم فكره

لما كان اهتمامه الفكري يدور حول ثلاثة محاور اللغة العربية والقومية العربية والاسلام فانني اقتطف نبذا من أقواله أو أشير إلى بعض أفكاره في هذه الموضوعات الثلاثة.

---

(١٣) الأمة السنة الثانية ــ العدد الأول ١٠ ــ ١ ــ ١٤٠٢ هـ.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

١ ــ اللغة العربية(١٤)

١ ــ يقول المبارك في اللغة : (للغة قيمة جوهرية كبرى في حياة كل أمة فانها الأداة التي تحمل الأفكار وتنقل المفاهيم فتقيم بذلك روابط الاتصال بين أبناء الأمة الواحدة ، وبها يتم التقارب والتشابه والانسجام بينهم . ان القوالب اللغوية التي توضع فيها الأفكار ، والصور الكلامية التي تصاغ فيها المشاعر والعواطف لا تنفصل مطلقاً عن مضمونها الفكري والعاطفي . أضف إلى ذلك ان الأمة العربية أمة بيان والعمل فيها مقترن دوماً بالتعبير والقول ، فللغة في حياتها شأن كبير وقيمة أعظم من قيمتها في حياة أي أمة من الأمم) .

٢ ــ كان من أثر الاصطدام بالحضارة الأوربية وما تلاها من حرب ثقافية على اللغة العربية ظهور دعوات فاسدة نشير إليها فيما يلي :

أولاً : الدعوة إلى استعمال الحروف اللاتينية في الكتابة العربية وهي تنطوي على اغفال مقصود أو جهل لخصائص اللغة العربية في تكوين الكلمة وبنائها ونبوّها عن الطريقة اللاتينية في رسم الكلمات وكتابتها .

ثانياً : الدعوة إلى العاميّة وهي بطبيعة الحال دعوة إلى الاقليمية فليس ثمّة عاميّة واحدة بل لهجات أو لُغيّات ، وقبول العاميّة يؤدي إلى انطلاق هذه اللهجات في طرق مختلفة في تطوّرها وتنتهي بها إلى ما انتهت إليه اللاتينية في فرنسا وايطاليا واسبانيا .

ثالثاً : الدعوة إلى اغراق العربية في سيل من الألفاظ الأعجمية دون قيد أو شرط ، سواء أكنا نستطيع أن نجد لها لفظاً يقابلها جديداً أو قديماً أم لم نستطع ودون أن نراعي أوزان العربية وحروفها وأصواتها . إن هذه الدعوة تشبه الدعوة إلى فتح الأبواب مُشرَعة أمام البضاعة الأجنبية دون قيد بحجة رفع مستوى الحياة الاجتماعية وهي دعوة تخفي وراءها طبعاً قتل الصناعة الوطنية والقضاء على الاقتصاد القومي . إنها شعوبية جديدة في الميدان اللغوي .

---

(١٤) انظر (خصائص العربية ومنهجها الأصيل في التجديد والتوليد) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كان من آثار هذه الدعوات ظهور نزعة محافظة اتصفت بكثير من التزمّت والتشدّد ولكنها قامت بوظيفة الدفاع عن اللغة الموروثة فصدّت عنها عبث العابثين وعدوان المعتدين، ولكنها لم تميّز بين الأصل الثابت من عناصرها وبين العارض المتبدل منها. فاستنكرت كلمات فصيحة أصبحت اليوم شائعة رغم معارضتها اذكر منها مثلاً: النقد والاكتشاف والفنّان والمجهر. رُفض هذا المصطلح الأخير لأنه صيغ على وزن اسم الآلة، واسم الآلة بزعمهم سماعي لا يجوز القياس على وزنه فيجب أن نستعمل (الجاهرة) بديلاً منه. وهذا مما دعا (مجمع اللغة العربية بالقاهرة) إلى اصدار قرار بقياسية اسم الآلة.

يقول أستاذنا المبارك: (لقد انتهى الأمر بالوعي اللغوي إلى ما انتهى إليه الوعي الذاتي في سائر ميادين الحياة: تحرّر من الانحطاط ورواسبه، تحرّر من العُجمة الجديدة والشعوبية الحديثة، استعادة للخصائص الأصيلة والصفات الذاتية واستشعار بها، اتصال بالماضي وتمثل لعناصره الأساسية الخالدة بعد احياء آثاره المهملة المنسيّة، تقارب بين الفصحى والعاميّة بارتفاع العاميّة واقترابها من الفصحى ونزول الفصحى إلى ميادين الحياة واتصالها بها بعد ان اعتزلت كثيراً من ميادين الحياة قروناً طويلة؛ ثمّ قدرة على التجديد والتوليد والبناء في ظروف الحياة الجديدة المتبدلة، ذلك هو الوعي اللغوي في المراحل التي قطعها والتي وصل إليها.

ثم يقول: (إن هذا الوعي اللغوي لا بدّ من انضاجه وتغذيته وتقويته ليشتد ويستحكم ويكمل، وليكون أوسع أفقاً وأشمل لعدد أكبر من الناس وليكون أرسخ وأعمق في النفوس) ما أحرانا اليوم بقبول هذه التوصيات وتنفيذها إلى أقصى مداها وأن لا نقنع بما حققناه من انتصارات إذ سقطت الدعوة إلى رسم لغتنا بحروف لاتينية وحلّ محلّها في نفوس الأوربيين اعجاب بالخط العربي وطاقته الفنّية الخلاقة[١٥]، كما سقطت الدعوة إلى العاميّة واستعادت الفصحى

(١٥) انظر وصف الخط العربي في شعر أراغون (مجنون إلسا).

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مكانتها وشهد لها مستشرق كبير قائلاً: إنها لغة الحريّة العُليا ووحي الحبّ وان من حق العرب أن يعتزوا بهذه الآلة اللغوية الصافية والصالحة لنقل الفكر عَبْرَ الدُوَل[١٦] ولكن الحملات السابقة تركت في نفوس العرب كُلُوماً لم تندمل بعد ولا يليق بهم الاستنامة إلى هذه الانتصارات بل ان الوعي اللغوي يدعوهم إلى مواجهة الواقع وادراك أن الحرب الثقافية لم تضع أوزارها ولكنها سلكت سُبُلاً أشد خفاء واتّبعت أساليب أكثر مكراً فليواجهوها بروح واثقة، محرّرة من الشعور بالنقص، مؤمنة بالنصر النهائي.

فانظر إلى اللهجات العاميّة في البلاد العربية فقد بقيت دراستها وقفاً على المستشرقين لأن العربي يخشى تهمة الترويج للعاميّة مع انه لا ضير في هذه الدراسة إذا تولّاها عربي مؤمن بلغة القرآن[١٧]، بل انها تؤدي إلى تقارب العاميّات وتعانقها في حضن أمها الفصحى حيث ترتضع الفصاحة من لبانها مما يعود على الأمة العربية بالخير العميم. وانظر إلى مشكلة تعريب التدريس الجامعي وما يعقد من مؤتمرات في سبيلها تكون مسرحاً يتبارى فيه العلماء واللغويون في تقديم دراسات تختلف عمقاً وسعة في قدرة العربيةَ على الوفاء بما تتطلبه لغة العلوم. ثم ينتهي كل مؤتمر إلى اصدار توصيات كأنها طمأنة المريض حتّى يأذن الله له بالشفاء لا إلى استصدار قرارات باتخاذ العربية لغة تدريس العلوم.

وانظر إلى طرائق التوليد اللغوي من اشتقاق وتعريب ونحت وكيف استخدم بعضهم النحت[١٨] بغير قيود وحسبوا ان فيه حلاً لمشكلة التوليد اللغوي في العربية وغاب عنهم ما تمتاز اللغة العربية به من أصالة بينما لا يرى العرب بأساً في قبول اللفظ الأعجمي في لغتهم بعد تغيير في حروفه أو حركاته يجعله مجانساً لالفاظهم فهل للعرب أن يتفقوا على استراتيجية تحمي اللغة العربية وتصدّ عنها كيد الكائدين وشتان بين استراتيجية تجاري اللغة في تقلباتها الحيّة

(١٦) لويس ماسينيون في مقدمته لكتاب المعجزة العربية للمستشرق ماكس فانتاجو.

(١٧) انظر مقالات الأستاذ شفيق جبري بعنوان (بقايا الفصاح).

(١٨) انظر مقال الأستاذ المهندس وجيه سمّان (النحت) في مجلة مجمع اللغة العربية مجلد: ٥٧.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وترصد ما يعترضها من عقبات في المجال الاجتماعي وبين خطة جامدة تعامل اللغة معاملة ميكانيكية بعيدة عن حياة الأمة. وإذا صح ان العرب أمة واحدة فيجب ان يواجهوا مشكلة اللغة مواجهة وحدوية موَّتلفة، لا مواجهة قطرية مشتّتة وان يبادروا إلى اقالة لغتهم من عثرتها، وإلا فإن المنظمات الدولية التي تعمل في مجال المصطلحات سوف تثبت الأوضاع اللغوية السقيمة وتضع أصحاب اللغة أمام أمر واقع لا محيص لهم عن قبوله.

وهل يجوز التخاذل أمام التحديات الهائلة التي تواجهنا بها المسيرة الحضارية المتسارعة التي تجاوزت المرحلة التقنية إلى المرحلة الاعلامية والتي ظهر فيها (العلم المعرفي) الذي أفاد من علم اللغة كثيراً وهو حريٌّ أن يعود على دراسة اللغة العربية بالخير العميم.

٢ ــ القومية العربية

يقول المبارك: (لقد مضى الزمن الذي كان فيه أكثرنا يفهم الاستقلال فهما ماديّاً ضيّقاً ويقصره على الأرض ويقنع بان تسلم له يتصرّف بها، أو ليس لنا مع أرضنا ملك آخر هو تراثنا المعنوي واستقلالنا الفكري وحريتنا في طريقة البناء في هذه الأرض؟).

ويقول:

(إن الانسانية كلها في أزمة فقد رقّى الانسان الوسائل ولم يسمُ بالأهداف والغايات. تحسنت وسائل العيش وتردى الضمير الانساني، وغدا الانسان عبداً للآلة التي صنعها بيده، وطغت الأهداف الماديّة على البشرية جمعاء، وطبعت الحضارة الحديثة بطابعها، وهي على اختلاف أشكالها لاتعرف إلا باسم مادّي فهدفها ــ سواء كانت رأسمالية أو ماديّة ــ المادةُ وحدَها.

فهل نستطيع بما عندنا من تراث أن نساهم في حلّ معضلة الانسانية؟).

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ثم يقول[١٩] :

(لنسرّح الطرف عبر القرون ولنبحث عن العناصر الانسانية والقيم الخالدة من تراثنا . ان الايمان بالقيم الخلقية والمعاني المثالية في الحياة هو أول خطّ من خطوط هذا التراث . فقد عرف العربي منذ الجاهلية بالإباء والمروءة ، والعفة عن الأعراض ، والكرم وحماية الجار والحليف ، والايثار ومشاركة الناس . ومن أجمل ما قيل في هذا الموضوع قولُ عروة بن الورد[٢٠] :

اتهزأ مني أن سمنتَ وان ترى بجسمي مسّ الجوع والجوع جاهد
فاني امرؤ عافي انائي شركة وانت امرؤ عافي انائك واحد
اقسّم جسمي في جسوم كثيرة واحسو قراح الماء والماء بارد

وبالجملة فان العربي كان متجهاً اتجاهاً مثالياً ولو اخطأ الهدف وضلّ السبيل فاسرف وبالغ ووضع الأمور في غير نصابها وبذلك استحق ان يوصف بالجهل[٢١] الذي هو ضدّ الحلم والحكمة . زد على ذلك ان الاتجاه المثالي كان في اطار القبيلة وفي نطاق الصحراء ولما ظهرت رسالة الاسلام واستجاب لها العرب ، تجاوب الاستعداد المثالي العربي مع مثاليتها فأصبحت التضحية بالنفس في سبيل احقاق الحق وتحقيق العدالة وأصبح الكرم مالاً يجبى ويوزّع بالعدل وبحسب الجهة والحاجة وغدا الإباء غضباً للحق وثورة على الظلم . وعاد التضامن مع القبيلة تضامناً مع المجتمع كله والعصبية للقبيلة عصبية للحق . لقد نقل الاسلام مثاليّة العرب من صعيد الصحراء إلى صعيد البشرية ، ومن إطار القبيلة إلى اطار الانسانية ومن الاتجاه غير المحدّد الهدف إلى مثالية منظمة رائعة . فتحققت معجزة أراد الله أن يكون العرب أداتها والمنفذين لها .

٣ ــ الاسلام[٢٢]

كان بين العرب كقومية وأُمة والاسلام كصورة للمثل الأعلى ، تلازم

---

(١٩) الأمة العربية في معركة تحقيق الذات ص١١٣ .

(٢٠) المرجع السابق ص١١٨ .

(٢١) يقال : إن الذي نبّه إلى معنى الجهل هذا هو الأستاذ المرحوم سليم الجندي .

(٢٢) المرجع السابق ص١٣٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

طويل تمثّل في تاريخ حافل وفي حضارات أينعت وأثمرت ونالت الانسانية منها أطيب الثمرات. ولئن كان كل مسلم يعتبر الاسلام دينه الذي يدين به في هذه الحياة، فإن كل عربي مهما كان دينه ينظر إلى الاسلام على انه تراثه القومي وتاريخه الضخم وإن الغرب وحده ــ والذين تأثروا به في ارائهم ــ هو المسؤول عن سوء فهمه للمسيحية والاسلام وقصوره وعجزه عن إدراك معانيهما السامية وكم سعى المستشرقون العاملون في خدمة الاستعمار الأوربي في اثارة العصبيات الطائفية، والقرآن الكريم يقول:

﴿ لا اكراه في الدين، قد تبيّنُ الرشد من الغَيّ ﴾(٢٣)

﴿ ولتجدَنَّ اقربهم مودّة للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى، ذلك بأنّ منهم قسّيسين ورُهباناً وانهم لا يستكبرون ﴾(٢٤)، فالاسلام(٢٥) ــ بغضّ النظر عن كونه دين القسم الأكبر من الشعب العربي ــ هو تراث الأمة العربية القوميّ، من روحه واتجاهاته العامّة تستمدّ مُثُلها ومبادئ تشريعها. فمن يستطيع أن يتهم الشاعر القروي بالتعصب الطائفي للاسلام حين يقول:

عِش للعروبة هاتفاً ... بحياتها ودوامها
وامدد يمين الحبّ يا ... لبنانها لشآمها
انظر إلى آثارها ... تنبئك عن أيامها
هذا التراث يمتّ معـ ... ـظمه إلى إسلامها

ويقول:

أنا العروبةُ لي في كل مملكة ... انجيلُ حبّ ولي قرآن إنعام
سلْ عهد شامي وبغدادي واندلسي ... عن عمق فلسفتي، عن عدل احكامي
شغلت قلبي بحب المصطفى وغدت ... عروبتي مثلي الأعلى واسلامي

(٢٣) البقرة: ٢٥٦.
(٢٤) المائدة: ٨٢.
(٢٥) المرجع السابق ص٨٢.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وشامتٍ بي مسرور بحزني مستشفٍ بدائي، ملتذٍّ بآلامي
قولوا له عربٌ تقضوا عليه فان يسلمْ فثنّوا بقرآن واسلام

أو ليس ينهل كاتب عربي كالدكتور أديب نصور من يَنبوع الدينين حين يقول:

مشكلتنا أعمقُ بكثير من السياسة والاقتصاد، هي مشكلة أمة فقدت مُثُلاً قديمة كانت القوى الفعالة في حياتها ولم تجِد مثلاً أخرى تتفق عليها، واني اعتقد ان العمل الجديد يجب أن يكون اخلاقياً روحياً قبل كل شيء.

ويختم كلامه هذا بقوله:

إن دعوتي ليست أقلّ ولا أكثر من العودة إلى الله، ولله المثل الأعلى كما جاء في القرآن الكريم ﴿ وله المثل الأعلى في السموات والأرض ﴾[٢٦].

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

(٢٦) سورة الروم: ٢٧.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net